كتابة أنا جالاردو، ترجمة من الأسبانية زياد شكرون*

أشعرُ أنني أغرق في السَّذاجة.
العالم المُعاصر يجتاحني من كلّ الجهات.
وأرى أنّ مردّ جهلي، إلى حدّ ما، هو كلّ تلك الأشياء التي تبدو معرفتها واجبةً.
ولا أعرفها.

هكذا أبدأ، لأنني من المؤمنات بقدرة الفن.
لقد تثقَّفتُ في أوقاتٍ أخرى حول هذه المعتقدات.
أقول لنفسي، مراراً وتكراراً، إن ممارستي الفنيّة هي أداة للمقاومة،
أداةٌ ثوريّة،
فدائيّة،
سياسيّة،
إلى آخره.
أداة تصلحُ لتغيير العالم.

عندما قرَّرت اعتناق هذه المهنة، كانت هذه هي نِيَّتي، أن أقلب كلّ شيءٍ رأساً على عقب.

لهذا، ولأسبابٍ أخرى، أفكّر منذ فترة في أعمالي وفي بعض المسائل التي أرى أنها تصبُّ في خانة العنف الجنساني. اليوم، أبحثُ في موضوع الشَّيخوخة تحديداً، وكيفيّة الانسجام مع هذه المرحلة من الحياة. ينطوي هذا البحث بذاته على شيءٍ من العنف.

أفعل ذلك من خلال رسمٍ تخطيطي يلخّص عمليّة بناء مكانٍ مخصَّص لتعلّم كيفية التقدم في السِّن.
أعني مدرسةً للشَّيخوخة.

أستكشف وأقوم بجولةٍ على الجوانب المختلفة لهذا العالم الجديد. كمرحلة أولى، أنشغلُ بالبحث عن المعلّمات. لذلك، يتمثّل نشاطي الأوّلي بلقاء نساءٍ مسنّاتٍ ومتقاعداتٍ يستطعنَ تعليم عددٍ من المهام والأشغال.
أوطّد علاقتي بهنَّ، نطهو الطعام ونأكل معاً، نصبح صديقات، نصبح عائلة.

إنطلاقاً من هذا السياق، علمت منذ بضع سنوات بوجود مركز وحيد للشَّيخوخة في أمريكا اللاتينية، وهو يأوي نساءً كنَّ يعشنَ في الشارع ومارسنَ أو لا زلن يمارسن دعارة الشوارع من أجل كسب لقمة العيش. في ذاك الوقت، كان يسكن المركز ما بين ١٥ و١٧ امرأة. يقع المركز في منطقة «شوتشيكيتزال» في مدينة مكسيكو، في حيٍّ اسمه «تيبيتو».

في العام ٢٠٠٩، بدء تواصلي مع المؤسسة.
عندما وصلني جوابهم المتأخّر، عرضت عليهم نيّتي بإقامة مشروعٍ مع نساء المركز. اقترحتُ عملاً لإعادة بناء الذّاكرة وصناعة قطعٍ وأدواتٍ تتعلّق بمواقفٍ وحالات معيّنة.

تقدَّمتُ بطلبٍ للحصول على منحة وفزت بها، فأتيتُ من الأرجنتين لقضاء بضعة أشهرٍ في المكسيك.
في البدء، كان من الصَّعب مباشرة المشروع، لأن مديرة «شوتشيكيتزال» لم تستقبلني،
أو كانت تطلب مقابلتي ثمَّ تجعلني أنتظر لساعاتٍ حتّى ينتهي بي الأمر بالمغادرة.

كان يراودني شعورٌ بأنها تريدني أن أتخلّى عن فكرة العمل مع النساء المُسِنّات، كما لو كان مشروعي لا يهمّها،
أو إنه كان يزيد من مشاغلها فقط.
أرادت جزءاً من منحتي، لكنني لم أكن قادرة على مشاركتها المال لأنه كان قليلاً، وبالكاد كان يكفيني لإعالة نفسي.

عندما أدرَكَت المديرة أنني لم أستسلم، استقبلتني أخيراً متسلّحةً بفكرةٍ مفادها أن أقبل بالعمل لساعاتٍ معيّنة في ما يشبه الخدمة الاجتماعيّة قبل أن أتمكّن من البدء بتنفيذ مشروعي.
وافقت على الفور.
كان ذلك يشمل الطهي، الغسيل، وشبه ذلك من الأعمال.

لكن المديرة كانت لديها خِطَط أخرى.

/ / /

في البدء، كان مقصدها الحكيم أنني لو كنت مهتمّة برؤية العنف والبؤس واختبارهما،
فإنها تعرف ما هي الطريقة الفُضلى لجعلي أعيش تلك التجربة.
لسذاجتي، لم أدرك مدى أهميّة ذلك الموقف إلّا بعد مرور فترةٍ من الوقت.

في ذلك اليوم، وبعد حوار معها، اصطحبتني إلى غرفةٍ مقفلة ومظلمة، تقع إلى جانب مكتبها.
وهناك عرّفتني على «إستيلا»:
امرأةٌ هاجعة مصابة بشللٍ نصفي، مُلقاة على ما يشبه سريراً عَفِناً عليهِ مفرشٌ صُنِعَ من بطانيّاتٍ مكدّسة لا تغطيها ملاءات.
الغرفة قذرة تلتصق بأرضيّتها نِعالُ الأحذية والبراز المتساقط من حفّاضاتها التي لم يتم تغييرها وإزالتها منذ ساعاتٍ طويلة.

نادت المديرة المرأة التي تُعينها، إحدى المسنّات اللاجئات التي كان واضحاً أنها لا ترغب بتأدية عملها.
اتَّضحَ أن «إستيلا» لا تتوقّف عن البكاء والشَّكوى، كان تئنّ طوال الوقت مصدرةً صوتاً يشبه:

آه آآآآه آه آآآآآه.

مفردات
Mophradat

طوال النهار والليل... كانت تدفع رفيقاتها إلى الجنون، لهذا السبب كُنَّ يُرعِبنَها ويهوّلنَها.
كانت الحالة أشبه بحلقةٍ مُفرَغة.

في لحظة دخولنا الغرفة، طلبت منّي المديرة أن أساعدهما في تغيير حفّاض «إستيلا».
تجمَّدتُ، لا أعرف كيف أفعل ذلك. كان أمراً مثيراً للاشمئزاز!

«أنا فنانة، كيف أفعل هذا؟»، قلت لنفسي.

لكنني قمتُ بذلك... ساعدتهما، لا أعلم كيف،
كانت دقات قلبي تتسارع.

ما إن أصبَحَتْ أقل أتّساخاً، طلبت المديرة منّي أن ننقلها إلى كرسي للمُقعدين، بالٍ ومُتداعٍ، كانت قد أحضرته المساعدة.
فعلنا ذلك.
ثمَّ طلبت منّي أن أُطعمها.

تعرّضت «إستيلا» لأربع جلطات. ليس بمقدورها أن تفعل أيّ شيء لوحدها، جسمها لم يعد يستجيب، ولا تستطيع البَلع.
أحضرت ليَ السيدة التي تساعدها طبقاً من الحساء مع الأرز وحبات الذُّرة.
أخرجتُ «إستيلا» إلى الفناء وحاولتُ إطعامها.
اعتراني الخوف، كنتُ أجهل كيفية القيام بذلك، وكنت كلّما ناولتها ملعقة من الحساء، غصّت وكادت تتقيّأ. أثار هذا المشهد في نفسي اشمئزازاً إلى حد أنني صرتُ أتقيّأ.

لم أكمل مهمّتي، مكثت معها قليلاً ثمَّ غادرت.
وقلتُ للمديرة بأنني سوف أفكّر في الأمر.

ركضتُ وأنا مذعورة ومشوَّشة ومُحبَطة، يغمرني إحساسٌ بالكره لتلك المديرة المشعوذة التي تعتقد بأنها ذكيّة لأنها وضعتني في مثل هذا الموقف المُريع.
سقطت في الشارع وبكيتُ إلى أن وصلت إلى منزلي.

وفكّرتُ في الأمر.

أفكارٌ كثيرة دارت في رأسي في الأيام التي تَلَت ذاك النهار.

/ / /

بعد مرور أسبوع، عُدتُ.

في ذلك اليوم، رأيتُ «إستيلا» قادمةً من مركزٍ آخر، ولكنني لا أعرف حتى اليوم لماذا أتت بمفردها،
في سيارة أجرة، ملقاةً على المقعد الخلفي مثل كيسٍ من البطاطا.
ناولني أحدهم كرسياً متحركاً، فأخرجتها من السيارة كيفما اتفق وأجلستها عليه.

مفردات
Mophradat

ذلك اليوم، بدأتُ وظيفةَ رعايةٍ مُحبّةٍ عَطوفة:
أصبحتُ أطعمها كما أستطيع... وجدت طريقة أسهل لكي تبتلع الحساء دون حبوب الأرز والذُرة، مجرّد ماء مالح.
أفتحُ فمها وأضخُّ الحساء بواسطة مِحقَنة في الجزء الخلفي من حلقها.
كحيوانٍ وُلِدَ لتوّه، لا يجيد الرّضاعة.

تمكَّنتُ، إلى حدٍ ما، من إصلاح كرسيها المتحرك، واشتريت بعض الوسائد والأغطية والملاءات كي تشعر براحةٍ أكثر أثناء جلوسها،
وكنتُ أُخرِجُها للتنزّه في الساحة المقابلة للمركز.

أحمّمها، أسرّحُ شعرها،
أشتري لها بعض الكريمات من سوق «لالاجونيا»، وأدلّك قدميها
ويديها
وذراعيها
ووجهها.

مع الوقت، تحوّل التدليك إلى تدليلٍ ومداعبات.

الكثير من المداعبات، إذ إنها كانت تعيش في الشارع منذ الرابعة عشرة من عمرها، ويبدو أن أحداً لم يلمسها بهذه الطريقة من قبل.
في كل مرة كنت أصل إلى المأوى، كانت تتوقّف عن البكاء وتتغيّر ملامح وجهها.

عندما ماتت «إستيلا» بعد شهر، أدركت معنى لقائي بها.
أدركتُ التحول الذي أحدثه الفن، في نفسي أنا على وجه الخصوص.
هذا الارتباط بين الحالات والأحداث جعل «إستيلا» تموت بسلامٍ وحنان.

حوّلتني قوّة الفن، عن غير قصد، إلى ما يسمى بالمَلّاح، أو ربان المركب.
إلى واحدة من تلك النساء اللواتي يرافقن من هم في أواخر أيامهم.
اللواتي يرافقنهم في العبور إلى الجانب الآخر بسلامٍ ودون خوف.

/ / /

*أنا جالاردو (مواليد ١٩٥٨، الارجنتين) هي فنانة علمت نفسها بنفسها، تعمل ما بين بوينس آيريس ومدينة المكسيك حيث تطرح أعمالها الفن كمجال للتحول والتفكير.

تم كتابة هذا النص بمناسبة فعلية «ما هي نهايتك المفضلة؟» الذي نظمته «مفردات» أثناء «مدرات» في متحف تامايو في مكسيكو سيتي في تاريخ ١٤ يونيو/حزيران ٢٠١٨، وشملت الفعلية أيضاً مساهمات أخرى من قبل علياء السبع وهشام بوزيد وميجيل كالديرون وكاميلا متولي وأحمد رفعت.